المقدمة

في بيان أسباب تأليف هذا الكتاب

الجذور التاريخية للعرب في بلاد الشام

الحمد لله القائل في محكم التنزيل: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء: 1].

«المسجد الحرام» في مكة، وهي جزء من «حجاز» جزيرة العرب، و«المسجد الأقصى» في «بيت المقدس»، أو هو «بيت المقدس»، وهو جزء من «شأم» جزيرة العرب.

وقوله: «باركنا حوله» يعني بلاد الشام كلها، فحول المسجد الأقصى: ليس هو القدس، وليس فلسطين، فالله أكرم، وأوسع كرماً من أن يضيّق على عباده في كرمه، فوسع كرمه، وشملت بركاته ديار الشام: إلى داخل الحدود التركية شمالاً، وإلى وادي الرافدين شرقاً، وإلى جبلي طيّئ في حائل جنوباً.

وقد ربط الله في ليلة الإسراء بين المسجد الحرام في مكة، والمسجد الأقصى في بلاد الشام، كما يربط الجزء بالكل، والفرع بالأصل، أو كما تضم الأم وليدها إلى صدرها. فمكة هي الأصل، والقدس في الشام فرع، ومكة عاصمة التوحيد، ومنبعه: ﴿إن أول بيت وُضع للناس للذي ببكة﴾ [آل عمران: 96]، والمسجد الأقصى ثاني المسجدين وضعاً. . ومكة: عاصمة العرب تهوي إليها أفئدة العرب، يحجون إليها، مهما تعددت أصنامهم. . وشاء الله أن تكون الرسالة الخاتمة على لسان نبيّ عربيّ، يحملها قومه العرب إلى العالم أجمع.

وربما كانت الحكمة من كون النبي الأخير عربياً؛ لأن الأنبياء والرسل لم يخرجوا عن دائرة جزيرة العرب، ولأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان أباً لمعظم الأنبياء، وهو الجدُّ الأعلى لمحمد ـ عليه السلام ـ، وهو أبو العرب أيضاً ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾

[الحج : 78] فأراد الله أن يكون الحفيد هو خاتم الأنبياء، وأن تكون أمته خاتمة الأمم التي تحمل وتحتضن رسالة السماء الخاتمة فيها وفي لغتها.

وربط الإسراءُ بين مكة في الحجاز، وبين المسجد الأقصى في الشام؛ لبيان أن أرض الشام عربية، وسكانها من العرب، وهي الجزء المتمم لجزيرة العرب الذي لا تحيا جزيرة العرب بدونه، فأرض الشام هي الجناح الشمالي لبلاد العرب.. وهل ينهض البازي إلا بجناحيه؟

ويمكن أن يُقال: إن بلاد الشام هي الثغور الحامية لقلب جزيرة العرب.. فكانت ليلة الإسراء التي وجهت أنظار العرب المسلمين نحو الشام؛ حيث تأكد لديهم أن بلاد الشام التي تضم المسجد الأقصى هي من بلاد العرب، وأنها من مقاصدهم الأولى: ذلك أن الصلاة ـ عمود الدين ـ فرضت في ليلة الإسراء إلى الشام، وفي ليلة العروج إلى السماء من أرض المسجد الأقصى في الشام، وبقي المسجد الأقصى في الشام قبلة المسلمين في الصلاة إلى ما بَعْد الهجرة بثمانية عشر شهراً، ومازال في المدينة النبوية مسجد القبلتين موجوداً شاهداً على مكان نزول الوحي بتحويل القبلة إلى مكة، ليس إنقاصاً لقدر المسجد الأقصى، وإنما كان ذلك لحكمة أرادها الله تعالى..

ومن ثمَّ جاءَت السنة النبوية القولية والعملية تحرّض المسلمين على جعل بلاد الشام من مقاصدهم في نشر الدعوة، سواء أكان ذلك في العهد النبويّ، أم بعد العهد النبوي.

ومن السنة القولية: أن النبي ـ عليه السلام ـ جعل المسجد الأقصى أحد ثلاثة مساجد، لا تُشدُّ الرحال إلا إليها: مسجد مكة، ومسجد المدينة، ومسجد الأقصى، وكيف تُشدُّ الرحال إلى المسجد الأقصى إذا لم يكن بيد المسلمين..؟ وفي هذا توجيه المسلمين إلى فتحه؛ ليكون شدُّ الرحال إليه ميسوراً لمن أراد.

وحثَّ رسول الله المسلمين على الإقامة في بلاد الشام؛ ببيان فضلها وبركتها والرباط فيها، وهذا باعتبار ما يكون بعد فتحها، فقال رسول الله ﷺ: «يا طوبى للشام»، وأعادها ثلاث مرات. قالوا: يا رسول الله! وبم ذلك؟ قال: «تلك ملائكة الله باسطو أجنحتها على الشام» [حديث صحيح]، وفيه شاهد على أن الله يؤيد المجاهدين في بلاد الشام بالملائكة.

وقال النبيُّ ـ عليه السلام ـ: «ستجنَّدون أجناداً: جُنداً بالشام، وجُنداً بالعراق، وجنداً باليمن»، وفي تتمة الحديث: «عليكم بالشام، فإن الله عزّ وجل قد تكفّل لي بالشام وأهله» [حديث صحيح]، وفيه إخبار بفتح الشام قبل أن يقع، وفيه حث على الإقامة فيه، وتفضيله على اليمن، والعراق..

وأما السُّنَّةُ العملية، فهي أن رسول الله ﷺ قد وضع الشام في خطته الجهادية لنشر الدعوة، ومحاربة مَنْ يقفون في وجه الدعاة إلى الله، بل الذين يمنعون الناس من حرية اختيار العقيدة..

عن سلمة بن نُفيل الحضرمي قال: «فتح الله على رسول الله فتحاً، فأتيت رسول الله، فدنوت منه، حتى كادت ثيابي تمسُّ ثيابه، فقلتُ: يا رسول الله! سُيِّبَت الخيلُ، وعطَّلوا السلاح، وقالوا: قد وضعت الحربُ أوزارها، فقال رسول الله: «كذبوا، الآن جاء القتال، الآن جاء القتال، لا يزال الله يزيغ قلوب أقوام تقاتلونهم، يرزقكم الله منهم، حتى يأتي أمرُ الله وهم على ذلك، وعقر دار الإسلام بالشام» [حديث صحيح].

وفي الحديث أن الشام سوف تُفتح، وستكون عقر دار الإسلام.. وفيه أن النصر لا يؤدي إلى كسر السلاح، وإبطال الاستعداد للحرب؛ لأن أعداء الأمة يتجدد وجودهم. وجاء في آخر الحديث: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»، وذكر «الشام» في سياق الحديث، والتذييل بذكر الخيل (آلة الحرب) يُخبر بأن الشام ستفتحُ، وأنها سوف تبقى من الثغور التي ستبقى هدفاً للأعداء، وهذا يُوجب دوام الاستعداد، ودوام المرابطة فيه.

وقد وقع كلُّ ما أخبر به الحديث، وما زال الشام مقصد أعداء الأمة؛ فالروم لم ينقطع غزوهم بلادَ الشام بعد طردهم منها، كلما وجدوا غفلة من المسلمين، وجاء بعد الروم «الفرنجة الصليبيون» وهم امتداد للروم. ثم جاء الإنجليز والفرنسيون، وهم من الروم، وجاء اليهود، وهم صورة من صور «الصليبية الفرنجية»، فلولا «الإنجليز» وهم رومٌ وصليبيون، ما كان الكيان اليهوديّ. وورثت أمريكا أوروبة،

وحملت أوزار الروم، والصليبيين (الإنجليز، والفرنسيين، والألمان، والإيطاليين)، وكانت أشدّ تمسكاً بالعداء للعرب في الشام..

وقد بدأت السنة العملية تمهد لفتح الشام في بداية السنة الخامسة للهجرة، حيث كانت غزوة «دَوْمة الجندل»، وهي داخلة في أرض الشام كما حدده الجغرافيون العرب[1]، وهي اليوم في شمال المملكة السعودية، قريبة من الحدود الأردنية.

فلما انتشر الإسلام في جزيرة العرب: حجازها، ويمنها، ونجدها، أخذ رسول الله ﷺ يغزو الروم في أطراف الشام، ويؤمِّنُ الطريق إليه، حتى يتعرف المسلمون طرق الشام وأمصاره، ويسبروا غور الروم واستعدادهم، فكانت «دومة الجندل» أول غزواته وسراياه.

وفي سنة ست من الهجرة أرسل رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف في سرية إلى دومة الجندل.

وفي سنة ست من الهجرة أرسل النبيُّ كتباً إلى هرقل (ملك الروم)، وكان يومها يقيم في القدس، وإلى الحارث بن أبي شمر الغساني أحد ملوك الغساسنة في الشام.

وفي السنة السابعة فتح النبيُّ ﷺ حصون خيبر اليهودية ـ وهي في شمال المدينة على بُعْد (150) كيلاً؛ لتكون طريق الشام آمنة.

وفي السنة الثامنة بعث رسول الله ﷺ سرية كعب بن عُمير الغفاري إلى ذات أطلاح من ناحية الشام.

وفي السنة الثامنة استنفر رسول الله ﷺ الناس إلى الشام، فكانت غزوة ذات السلاسل ـ شمال السعودية...

وفي السنة الثامنة كانت غزوة مؤتة ـ بالقرب من الكرك في شرقي الأردن ـ.

وفي السنة التاسعة كانت غزوة تبوك.

وفي السنة الحادية عشرة كان بَعْثُ أسامة بن زيد.. وأُنفذ في أول خلافة أبي بكر الصديق..

---

(1) انظر: «معجم البلدان» لياقوت ـ (الشام).

كلّ هذه الغزوات والسرايا كانت مقدمات لفتح ما استولى عليه الروم من الشام، وهو أمْرٌ قطعي من صاحب الرسالة إلى أصحابه بأن يكملوا العمل الذي وضع أساسه بنفسه، وفيها تصريح، وليس تلميحاً؛ بأن بلاد الشام عربية أرضاً وسكاناً، ولا مناص من عودتها إلى الجزيرة العربية أمِّ العرب جميعاً.

وفهم صحابة رسول الله ﷺ هذا المعنى، فكانت الشام من أول مقاصدهم بعد إخماد الردّة، فتوجه خالد بن الوليد إلى العراق، وفتح ما كان من العراق داخلاً في حدود بلاد الشام، ثم جاءه الأمر بالانضمام إلى الجيوش التي وجهها أبو بكر الصديق؛ لطرد الروم من الشام، فكانت في بلاد الشام المعارك الفاصلة، التي تنظم في عقد الغزوات النبوية، وهي معركة «العربة وداثن» التي فتحت غزة، ثم معركة أجنادين التي حررت فلسطين كلها، ثم معركة اليرموك التي أنهت النفوذ العسكريّ الرومي في بلاد الشام، ثم كان فتح القدس الذي أتاح للمسلمين شدّ الرحال إلى المسجد الأقصى..

إنَّ التوجيه الإلهي نحو الشام (الإسراء والمعراج)، والتوجّه النبويّ المبكر نحو الشام (الغزوات النبوية نحو الشام وفي الشام)، وحرص الخلفاء الراشدين على الاتباع والاقتداء؛ اتباع التوجيه الإلهي، والاقتداء بالسيرة النبوية، كلّ هذا له دلالة واحدة، وهي أن الشام من بلاد العرب، ويجب أن تكون تحت رعاية حملة الرسالة، وأنه يجب أن تُفتح، كما فتحت مكة والطائف واليمن ونجد.. فهم مشمولون جميعاً بالخطاب الأول: النبيّ عربيّ، واللسان عربي، والقرآن عربي إلى كلِّ أرض عربية. وهناك ثلاثة شواهد وأدلة وبراهين على عروبة بلاد الشام:

أولها: الامتداد الجغرافي لجزيرة العرب، أو هي الجزء المتمم لجزيرة العرب.

وثانيها: كون الشام منبت العرب، أو من منابت العرب، لم ينتقلوا إليها، وإنما نبتوا فيها، وأضيف إليهم مع مرور القرون، شعوب من ذوي أرحامهم من أهل جزيرتهم جزيرة العرب، من الجنوب ومن الشرق.. فالجزيرة العربية واسعة الأنحاء، متعددة المناخات، يضيق العيش في ناحية منها، فيأوي أهلها إلى أهليهم وذوي أرحامهم في الأنحاء الخصبة، فيكون بينهم من التكافل الاجتماعي ما يكون بين الأهل والإخوان.. فمثل «المهاجرين» و«الأنصار» قديم جداً في جزيرة العرب كان

يتجدد مع مرور الأزمان وتعاقب الحدثان، وكان قبل الإسلام - في العهد الجاهلي القريب - يُعطى اسم «الجوار»، وقد تنزل العشيرة في جوار عشيرة أخرى، ترعى في حماها، قال أبو جندب الهذلي:

وكنتُ إذا جاري دعا لمضوفة ... أُشَمِّرُ حتى يَنصُف الساقَ مئزري

. . وبقيت حرية الهجرة، أو حرية الانتقال من أرض إلى أرض داخل جزيرة العرب - بيت العرب - إلى أواخر العصر التركي، ثم انحصرت، فاقتصرت حرية الهجرة على الإقليم الذي سُمّي «دولة» حيث اختُرِعَ جواز السفر، والجنسية، . . إلخ.

ولو أعطيت الحرية لشعوب الجزيرة العربية، لبقي حال الهجرة والنصرة باقية إلى اليوم (2005م). .

وكانت بلاد الشام مطمع الغزاة الغرباء عبر القرون، يحتلها الغازي ما شاء الله من الزمن، ثم ينحسر ظله، وما تبقى من آثاره يذوب في بوتقة الأكثرية الأبدية، وهي الأكثرية العربية.

فأين آثار الفرس، واليونان، والرومان، والفرنجة الصليبيين، والإنجليز؟ بل أين الأتراك العثمانيون الذين أرادوا تتريك البلاد ومحو الوجود العربي؟ لقد كان لكل أمة من الأمم التي ذكرتُها الجيوش الغاشمة القادرة على الحرق، والمحق والإزالة، ولكنها وقفت عاجزة أمام الجذور العربية الضاربة في أعماق الأرض السابعة، لقد كانت هذه الأمم الغازية كما قال تعالى: : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرعد: 17] أو كما قال الشاعر:

أتى على الكُلِّ أمرٌ لا مردّ له ... حتى قَضَوْا فكأن القوم ما كانوا

وصار ما كان من مُلك ومن مَلِك ... كما حكى عن خيال الطيف وسنانُ

. . وبقيت العروبة في الشام ملء السمع والبصر. . ولم تدم حياة عنصر بالشام كما دامت حياة العرب؛ فإنَّ ما دُوّن وعرف من تاريخ وجودهم يرجع إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد. . وفي تاريخ فلسطين أن العرب دخلوا فلسطين قبل

الإسلام بقرون عديدة، والدليل على ذلك أن «نارام سن بن صارغون» غزا فلسطين سنة (2800ق. م)، وصادف في سيناء حكومة عربية.

ثم حارب قبيلة «معان» العربية، وأسر أميرها.

ومنها أن سرجون الثاني (صارغون) غزا عرب البادية الذين اعتدوا على السامرة، وأخضع قبائلهم، ومنها ثمود ومدين، وحارب عبابيد، وأخذ منهم طائفة وأسكنها في السامرة (750 ق. م)، ولما جاء الإسكندر إلى غزة وحاصرها، كانت حاميتها عرباً، فقاومته أشدّ مقاومة (القرن الرابع قبل الميلاد).

ومنها أن الحارث ـ حاكم دمشق ـ كان عربياً لما دخلها بولس الرسول كما ورد في رسالته إلى أهل مدينة «كورنثوس» (في اليونان).

الشاهد الثالث على عروبة بلاد الشام:

الربط الإلهي بين مكة ـ قلب جزيرة العرب ـ والقدس في الشام، ليلة أسري بالنبي العربي. . وحرص النبي على أن تكون الشام عربية خالصة العروبة، تتلقى الرسالة وتنشرها، ومتابعة الخلفاء الراشدين هذه الرسالة، وإتمام فتحها قبل غيرها، بعد فتح الحجاز واليمن ونجد. .

هذا التاريخ الصحيح الذي يقرر أن بلاد الشام عربيةٌ، وأنها جزء من الجزيرة العربية ـ لم يستطع أعداءُ العرب أن يزيلوه عن أرض الشام بقوة الجيوش، والمجانيق ـ جمع منجنيق ـ والمدافع والصواريخ؛ فسلطوا عليه سلاح «التاريخ»؛ وسلاحُ التاريخ أشدُّ فتكاً من سلاح الصواريخ، فزيّف الأعداء تاريخ الشام[1] بخاصة، وتاريخ بلاد

(1) قال الكاتب الهندي وحيد الدين خان، حول اندحار أوروبة في الحروب الفرنجية الصليبية: «وبعد الهزائم التي حلت بها، قررت أوروبة تغيير أسلوبها الحربي، وأخذت تستعدّ لحملة جديدة على عالم الإسلام. . وكانت خلاصة التفكير الجديد، أن يتعلم الأوربيون علوم المسلمين (وهو الاستشراق)، ثم يهزموهم بأسلحتهم وفنونهم ذاتها. وسمّى الأوربيون الحرب الجديدة: الصليبية الروحية Spiritual crusade، وكانت غاية الصليبيّة الروحية أن يتعلم الأوربيون علوم المسلمين، فيشوّهوا العقائد الإسلامية وتاريخ الإسلام». (عن جريدة الأخبار القاهرية 18/ 10/ 1972م). ثم انضافت اليهوديّة التوراتية، التي سيطرت على الدراسات التاريخية والكليات اللاهوتيّة في الغرب، واختصت بكتابة تاريخ كاذب لبلاد الشام بعامة، وفلسطين بخاصة.

العرب بعامّة، وملؤوه بالأكاذيب والخرافات التوراتية التي تزعم أن العرب غرباءُ طارئون في بلاد الشام، وتختلق تاريخاً خيالياً يؤصل لوجود قوم غرباء، ليس لهم جذور ولا فروع في بلاد الشام.

نقول: إنهم ألغوا وأسكتوا التاريخ العربي لبلاد الشام في قرون ما قبل الإسلام، واختلقوا تاريخاً، أحلوهُ محلّ التاريخ العربي، وجلبوا أقواماً غرباء عن بلاد الشام، وربطوا حاضرهم الوحشي بالتاريخ المختلق القديم، وأقاموا «الكيان اليهودي» في قلب بلاد الشام، بناء على ما اخترعوا من الأحداث الزائفة.

. . . هذا التاريخ الزائف تأسس ونشأ وشِبَّ في أوروبة وأمريكا في أحضان الكليات اللاهوتية، التي توجهها العصبية الصليبيَّة والخرافات التوراتية المأخوذة مما يسمى: «العهد القديم».

وانتقل هذا البهتان إلى الثقافة العربية، عن طريق الترجمة حيناً، وعن طريق أساتذة التاريخ في البلاد العربية حيناً آخر؛ ممن نالوا شهاداتهم الدراسية من أوروبة وأمريكا. . وذاع ذلك وشاع في كتب المعارف العربية، حتى أضحى من المسلّمات المتداولة بين المثقفين. .

وأضرب مثالاً واحداً لهذا البهتان المتداول على ألسنة الكتّاب والمثقفين العرب؛ فإنك لو سألت طلاب المدارس والجامعات وأساتذة المدارس والجامعات: ما صفة بلاد العرب؟ لأجابوا، أو أجاب أكثرهم: إنها شبه جزيرة. ولو سألتهم: ما الأقاليم التي تضمها؟ لأجابوا أو أجاب أكثرهم: إنها الأقاليم التي يطلق عليها اليوم (دول الخليج العربي)، واليمن.

فمن أين جاءهم هذا الوصف؟ إنها كتب الجغرافية العربية، والموسوعات العربية التي تنقل أو تترجم ما في الكتب الغربية. . فهذه المعلومات الخاطئة تقررها ما يسمى: «الموسوعة العربية الميسرة» التي أشرفت على تأليفها ونشرها الجامعة العربية، أو معهد الدراسات العربية التابع للجامعة العربية.

تحت عنوان «شبه جزيرة العرب» قالت الموسوعة: تقع جنوب غرب آسيا، بين البحر الأحمر وخليج عُمان شرقاً، وتشمل شبه الجزيرة: السعودية، واليمن، والكويت،

و (المحميات البريطانية . . هكذا)، وهي: الإمارات العربية المتحدة، وعدن، والبحرين، وعُمان، وقطر، ومسقط، وحضر موت، وغيرها . .

وهذا التعريف يخرج بلاد مصر حتى حدود نهر النيل، وهو داخل في حدود جزيرة العرب، ويخرج العراق حتى حدود نهر الفرات، ويخرج أقاليم بلاد الشام حتى جبال طوروس، ويخرج البحر الأبيض المتوسط ـ بحر الشام ـ من الحدود . . مع العلم أن هذه الموسوعة لم تترجم لاسم «الشام»، وكأنه ليس إقليماً عربياً يجب على المثقف العربي أن يُلمّ به . .

ومدلول هذا التعريف، والتحديد لبلاد العرب: أن العراق، وبلاد الشام، وبلاد مصر، فيها عربٌ، على أرض ليست عربية، أو أنَّ هذه البلاد قد تعرّبت بالفتح العربي الإسلامي، وهذا ما وقع فيه القوميّون، والإسلاميّون معاً؛ فالقوميّون يتحدثون عن عروبة شعب الشام، ولكنهم لا يربطون بين الأرض والشعب، أو بين الأرض والعروبة، ويتحدثون عن العروبة اليوم، ولا يفكرون في العروبة العتيقة، ولعلَّ «القوميين السوريين» ألصق بأرض الشام من القوميين العرب.

وأما الإسلاميون، فهم يتغنون بالفتح العربي الإسلامي، وسرعة انتشار الإسلام في بلاد الشام، والبطولات العربية الإسلاميّة في هذا السبيل، ولا يعيرون تاريخ ما قبل الإسلام عناية، بل لا يربطون بين الإسلام والعروبة، ولا يربطون بين الإسلام العربي، أو العروبة الإسلامية والأرض . . مع أن الخصومة والمجادلة، في «الأرض» مَنْ كان يملكها في التاريخ القديم، ومَنْ هو أحقُّ بملكيتها اليوم؟

والمفهومات والمعلومات الزائفة الكاذبة في هذه الموسوعة وغيرها من الكتب العربية كثيرة جداً، وقد أحدثت زلزلة في نفوس ومعتقدات كثير من المثقفين العرب، والعامة، زيادة على ما أحدثته (الإسرائيليات) المبثوثة في كتب تفسير القرآن، وكتب التاريخ والأدب والمواعظ . . إلخ.

ففي بداية القرن العشرين الميلادي كان هناك إجماع بين العرب: المثقفين والسياسيين والعامّة: أن أرض فلسطين ملك خاص بالعرب، ولا يملك اليهود فيها شبراً، ثم مرّت الأيام وتعاقبت السنون، فأخذ هذا الإجماع يتصدع قليلاً قليلاً، حتى

وصل الصدع إلى ما نراه اليوم سنة (2005م)، فصرنا نسمع أصواتاً تخالف ما كان عليه الآباء. . وصار يزعم بعض (الزعماء) أن اليهود (أبناء عمّ العرب)، ويجب أن نلحقهم بالنسب العربي، ونعطيهم حقّهم من الميراث، بل نعوضهم عن سنوات الحرمان، ونعطيهم النصيب الأوفر من فلسطين (80٪). . فهل كان الآباء جاهلين ضالين ثم اهتدى الأبناء؟ أم أن الأبناء ضلوا السبيل، وجرفهم سيل الغزو الفكري الأوروبي والأميركاني (اليهودي)؟ إنها فتنةٌ تركت الحليم حيران، وأحالت طائفةً كبيرةً من الأمة إلى حال ذهول، يصرخون: ليت شعري ما الصحيح؟ وفي المرتدين عن منهج الآباء: (مؤرخون؟) و(سياسيّون؟) و(أدباء؟) و(محللون سياسيّون؟)، ومن هم على رأس مؤسسات الفتوى؟. وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن صدمة التبديل كانت قويّة.

بالأمس كان فلان يقول: «لا» بملء فيه، واليوم يقول: «نَعْم»، و«بها ونعْمتْ»؛ أي: بهذه الرِّدّة يُنال كرسيُّ الزعامة. يقولها متشدقاً فوق أعلى منابر الأمة.

وفي ظل هذه الحال التي تنذر بالشر ـ و«**ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب**» ـ كان لابُدَّ من نداء أو صرخة عربية شآميّة، تنبّه الغافلين، وتعلّم الجاهلين، وقد انتُقصَتْ أرض الشام من أطرافها، وأحدق بها العدوان من جميع جوانبها، وأصبحتَ أشبه بجزيرة في بحر من الأعداء. وهي تنادي وتقول: هذه أرضكم يا أهل الشام، ورثتموها عن آبائكم قبل عشرة آلاف سنة أو يزيد، وجذور أجدادكم في أعماق الأرض السابعة التي ليس تحتها أرض، فعضوا على أرضكم بالنواجذ، واحموها بصدوركم، وفلسطين الشام التي وضع فيها الأعداء رحالهم هي عتبة بابكم، والطريق إلى حَرَمكم، ولن يطول وقوف اليهود عند العتبة؛ لأن مقصدهم أرض الشام كلها (من الفرات إلى النيل).

. . وهي صرخة استغاثة، يسمعها أهل جزيرة العرب قاطبة تقول لهم: الشام من أرض جزيرتكم، وهي جناحكم الذي يكون به سموّكم، وفيها قواعد من قواعدكم:

. . وهـذا الكتـاب الـذي عنونته بـ «الجـذور التاريخيـة للعـرب في بـلاد الشـام» يحتوي على شذرات مما يجب أن يعرفه العربي عن بلاد الشام، وما يجب أن يعرفه الشآمي عـن انتمائه العربيّ العتيـق، وكلّ شـذرة تفـرد وتفصّـل في مجلّـد، فبـدأت بتصحيح المصطلح الجغرافي لبلاد العرب، وقرّرتُ أنها جزيرة، وليست شبه جزيرة، وأن بلاد الشام جزء من هذه الجزيرة العربية، التي تصـل حدودهـا الشآمية إلـى جبـال طـوروس في تركيـا. . وأردتُ أن يعـرف العربيُّ ـ في الجزيـرة، وفي العـالم العربـي ـ أن بلاد الشام جزء من وطنه العربي: الجغرافيّ، والبشري، والحضاريّ. .

وبناءً على قرار محكمة التاريخ والجغرافية قمت بتعديل وتصحيح حـدود بـلاد العرب، وأرجعتُ إليها ما سـرقته أهـواء المؤرخـين والجغرافيـين، وربمـا أسـقطه بعـض الكُتّاب العرب من ملكية العرب جهلاً بالحق العربي، فلم تعد حدود بلاد العـرب، أو ما يسمونه (شبه جزيرة العرب) عند آخر حـدود (السـعودية) الشـمالية، وآخـر حـدود الأردن الجنوبيـة، وإنمـا انتقلـت هـذه الحـدود إلـى داخـل أرض الجمهوريـة التركيـة الجنوبية، فهناك قطعة عزيزة من أرض الجزيرة العربية، سكانها مـن العـرب، أدخلتها الأهواء السياسيّة تحت حماية الحكومة التركية، وهي في مذهبنا، تُعدُّ عاريَّة ـ والعاريَّـة مستردَّة ـ قـد نسكتُ عليها حيناً مـن الزمـن؛ لِحَقِّ الجـوار، وحـق الروابـط الثقافيـة والتاريخيّة التي تجمع العرب والأتراك. .

وتحدثنا عـن اللغـة التـي جمعـت الشـام والحجـاز ونجـداً. . وهـي اللغـة العربيـة العتيقـة (الأم)، ومـا تفـرع عنـها مـن لـهجات: (الكنعانيـة، والأكاديـة، والآراميـة، والسبئية، وامتزاجها في اللغة العربية الأخيرة، التي نزل بـها القـرآن، كمـا تحدثنـا عـن الشـعوب العربيـة القديمـة التـي جمعـها اسـم «الجنس العربيّ»، ثـم دخلـت الشـعوب جميعاً (في جوف الفَرا)، وهو اسم العرب الأخير.

هذه العلاقة العضوية بين بلاد الشام، وبقيـة جزيـرة العـرب يـترتب عليـها حقـوق وواجبات متبادلة بين الأقطار وسكان الأقطار، وهي حقوق شـرعية، وقانونيـة يفرضـها البيت الموحّد، والنسب المتصل؛ ففلسطين التي اقتطعها اليـهود مـن أرض العـرب، هـي

ملك للعرب، كلّ العرب، ويجب لأهلها وأرضها حقوق على العرب، وهي حقوق النصرة؛ نصرة الأخ لأخيه، وللعرب في أرض فلسطين حقوق الوراثة التي لا تسقط بتباعد الأزمان والأنساب؛ ففي فلسطين والشام عربٌ لهم فروع وجذور في الشام والحجاز ونجد. . وفي نجد واليمن عربٌ لهم فروع وجذور في الشام وفلسطين. . وأما اليهود فليس لهم جذور أو فروع في الشام وفلسطين، كانت بدايتهم القديمة من الفرس، والفرس لا حقَّ لهم في أرض العرب، وأما الغُزاة الجدد، فهم من عروق كثيرة، وليس فيهم عرق يمتُّ إلى جزيرة العرب، ولا إلى فلسطين والشام، ولا تصدق مقولة «اليهود العرب»، فليس هناك يهودي عربيّ، ولا عربيٌّ يهودي، وليس هناك يهودي «متعرِّب، أو مستعرب»؛ لأن التعرب والاستعراب يخلقان شيئاً من الولاء، واليهودي الذي عاش في البلاد العربية ليس في قلبه مقدار ذرة من الولاء للقوم الذين احتضنوه، وأجاروه. . هناك يهود يتكلمون العربية فقط، دون أن يتأثروا بتراثها الأدبي. . ربما تعلموها للمنفعة أو بسبب الجوار.

هذا العنوان الذي وضعته للكتاب، وبخاصة تذييل «**بلاد الشام من جزيرة العرب**»، والربط العضوي بين الشام وبقية أقطار الجزيرة، من قبل الفتح العربي الإسلامي، ومن بعده. . هذا العنوان، لم أجد مَنْ أفرده موضوعاً للدراسة والبحث، مع الحاجة الماسّة إليه؛ لفشوِ الجهل بمضمونه، ولفظه.

ويكاد يكون الجهل بحقيقة الشام الجغرافية والتاريخية هو الأعمَّ الأشمل بين دارسي التاريخ، من أبناء الشام أنفسهم، وكم من مثقف يزعم أنه متضلع من التاريخ يقابلك بالدهشة والتعجب والاستغراب، إذا قلت له: إن الشام من جزيرة العرب، ويقول: لم أسمع بهذا من قبلُ. . وربما نعذرُ هذا وأمثاله، فقد قيل:

وينشأ ناشئُ الفتيان منّا ... على ما كان علَّمه أبوه

وقد مضى القرن العشرون كلُّه، وها نحن أولاء في بداية القرن الحادي والعشرين، والمتعلمون يرددون مقولة: «شبه جزيرة العرب»، ومقولة: «إن العرب المسلمين في الشام» هم من أعقاب الفاتحين العرب، وربما قيل: «إن المسلمين في الشام من أعقاب مسلمي الفتح»، وربما تجرأت بعض الزعامات العاقَّة لوطنها وعروبتها،

ورددت هذه المقولات متأثرة، أو ناعقة، بأهداف اليهوديّة والصليبيّة.. في الوقت الذي لا يجدُ العربيّ بعامة، والعربي الشامي بخاصة، ما يدفع به المقولات الضالة..

وأنا لا أزعم أنني أتيت بما لم تأت به الأوائل، أو لم تستطعه الأوائل، فكل ما في هذا الكتاب مما كتبه الأوائل، ولكنه جاء مفرقاً بين ثنايا الكتب، أو بين صفحات الكتب وسطورها، لم يجمعه أحد تحت العنوان الذي أردت، والمضمون الذي أقصد إليه، ولا أزعم أنني استوفيت كل ما يمكن أن يُقال، فما هي إلا بداية، يأتي بعدها مَنْ يكمل نواقصها.

وأرجو الله تعالى أن يكتب لي ثواب المجاهدين في سبيله، المدافعين عن حياض الأمة.. فالكلمة هي التي تعطي الأمة اليقين بحقها، فتجعل السيف في يدها بتاراً قاطعاً، ورحم الله صلاح الدين الأيوبي الذي قال لقواد جيوشه: «ما فتحت البلاد بسيوفكم، ولكن بقلم الفاضل»، وهو القاضي لفاضل..

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: 8].

وكتبه

محمد بن محمد حسن شُرَّاب

في «داريا الشام»

غرة ربيع المولد 1426هـ

التاسع من نيسان 2005م